عن "الذي يأتي ولا يأتي" للبياتي

بقلم خليل سليمان كلفت

(واذا بنحيب وأغنية يسمعان : « يا رب افتح شفتي » ، حتى ان الاذن أحست بالبهجة والحزن يولدان توأمين في كل كلمة)
النشيد الثالث والعشرون ـ المطهر ـ دانتي

يقع الانسان أسيرا في الشرك وتحيط به الشروط من كل جانب وتحدثه نفسه بالفرار ولكنه يعي حقيقة أن لا فرار اذ يصيح به صدى صوت طارق بن زياد : « امامك البحر ومن ورائك العدو بالمرصاد » فلا يدري ماذا يفعل ؟ انه « مقاتل مهزوم » « محروب » وما عليه الا ان ينتظر وهو في انتظاره كالسائر على الحبل بله الواقف عليه ينتظر نسرا يأتي ويأخذه الى حديقة يحلم بها ويعاني في كل لحظة مخافة ان يقع في قاع لا قرار له ، ومن هنا تنبع مطهرية التجربة التي تحملها قصيدة « الذي يأتي ولا يأتي » لعبد الوهاب البياتي .

في القصيدة نقابل شخوصا يؤمنون بتحقيق الجنة على الارض ويستعجلونها ولكنهم اذ يعون حقيقة انهم يذوون بما هم كائنات متناهية فان الخاص المتناهي في مقابل العام اللامتناهي يكاد يقلب العالم في نظرهم الى عبث لا ينتهي لان النضال الذي لا ينتهي في سبيل تغييره لم يبلغ بهم غير الجدار يرتطمون به فيتساءلون في مرارة عما اذا كانوا :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وقبل أن نتكلم عن القصيدة نقوم بعملية تراجع نسجل فيها لقاءات لنا سابقة مع هذا « الذي يأتي ولا يأتي » : ففي ديوان البياتي « اباريق مهشمة » الذي صدر عام ١٩٥٤ رسم الشاعر في قصيدة « في المنفى » صورة الانسان الذي يناضل كل يوم تحت الشمس ، يمثل في نضاله أسطورة سيزيف التي لن يتحرر منها الا بالموت « الصخرة الصماء للوادي يدحرجها العبيد ـ سيزيف يولد من جديد من جديد » . والغريب ان سيزيف هذا يحلم بالماضي ولا يتطلع الى المستقبل الا كزمن يعود فيه الماضي ـ اليئوس من عودته مع ذلك ـ « تقضي بقية عمرك المنكود فيها تستعيد ـ حلما لماض لن يعود ! ـ حلم العهود الذابلات مع الورود » ويزايلنا الشعور بالغرابة اذ نعرف ان هذا الماضي يكاد يصنع في وجدان الشاعر ما يشبه أسطورة العصر الذهبي أو الفردوس المفقود ، فقط لان الحاضر في وجدانه نكسة تزول فتزول المأساة « بالامس كان لنا على القدر انتصار ـ كان انتصار » (في نفس القصيدة) . وفي قصيدة « عشاق في المنفى » في نفس الديوان نقرأ هذا الحوار :

« ـ وهؤلاء
ـ مثلي ومثلك يحفرون قبورهم عبر الجدار
ـ مثلي ومثلك مقبلون على انتظار
ـ من لا يعود » .

وربما كانت طبيعة الحنين الى الريف كما يستفاد من كتاب الدكتور احسان عباس عن ديوان « اباريق مهشمة » (عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث) أو طبيعة النفي فيما بعد تلك المرحلة السبب في ان يأخذ « الذي يأتي ولا يأتي » صورة « من يعود » ، فالعلاقة الاوديبية التي بين الشاعر والريف ثم الشاعر ووطنه العربي، خلقت هذه الصورة التي تشير الى العودة المنتظرة التي تأتي بالولادة الجديدة التي هي ايضا عودة « ولادة اخرى هو الموت ، هو الاياب » (مرثية الى ناظم حكمت) في ديوان « النار والكلمات » والتي تشير الى العطب الولادي والعودة الرمزية الى بطن الام كما في تحليلات عالم التحليل النفسي أوتو رانك ، ويجد الموت مكانه في هذا التركيب بما هو عودة الى الاصل ، وربما صنعت مقولة « العودة » خطا متصلا في شعر البياتي يشير الى انتصار الامس تارة والى الحنين الى الطفولة او الريف تارة اخرى والى الحنين الى العراق والوطن العربي تارة ثالثة ، وأخيرا الى رغبة في تطهير البشرية من آثامها وأدرانها لتعود الى حالة البراءة الاولى التي ترمز الى تحرر الانسانية من العبودية ـ التي تعاقبت عليها في أشكال مختلفة من الرق والاقطاعية والرأسمالية ـ لتعود الى تلك الحياة الخالية من الصراع الاجتماعي في المرحلة البربرية وان كانت الانسانية مسلحة هذه المرة بالتقدم العلمي الثقافي الكبير ، وليس من أغراضي هنا الا ان اوضح بهذا الكلام عن العودة ان « من يعود » هو هذا « الذي يأتي ولا يأبى » في صورة كانت قد رسمت هناك بعيدة عن النضج والاكتمال .

ومن هذا اللقاء الاول بالذي يأتي ولا يأتي انتقل بسرعة ـ تاركا تتبع الصور المختلفة في الدواوين التي جاءت بعد اباريق مهشمة ـ الى مسرحية البياتي (محاكمة في نيسابور) لنلتقي بالخيام ذاته وهو ينظر الذي يأتي ولا يأتي وانه ليتكلم بوضوح شديد واني أثبت كثيرا مما يقول هنا لاهميته في مقالي هذا . يقول الخيام : « واني لارى بعين الغيب هناك نجما ، هناك في السماء الفارغة سيطول انتظار الانسانية له ، ولكنه سيهل ذات يوم وتملأ أنواره الارض ، واني لاصلي من اعماق نفسي لذلك اليوم ، لا من اجل نفسي انا ، فما انا الا شبح منفي هالك ، وانما من اجل هؤلاء المعذبين الذين طال انتظارهم دون جدوى » ويقول : « ان نجم الثورة الحقيقية يلمع نوره وراء ألف باب من الانتظار الطويل ، ولكنه سيهل ذات يوم ... » . وفي لقائنا هذا بالذي يأتي ولا يأتي نتعرف عليه محددا بوضوح (انه نجم الثورة الحقيقية) ولكن طبيعة الانتظار وراء الابواب الالف هي التي تأتي غامضة مريرة ، فبعد أن ينفي الخيام وتنفي كتبه ، وبعد ان يرفض الخيام وسائل الحسن الصباح وهي القتل في سبيل الحياة يستسلم للخمر وللتأمل بعد ان كان بطلا ايجابيا فعالا .

وفي تلك المسرحية « محاكمة في نيسابور » التي صدرت عام ١٩٦٣ نرى سيزيف يدحرج صخرته الصماء في الوادي ، ويتأمله الخيام ويرى شروطه في صورة بشعة (القطط تأكل لحم يدي) ، ويأكل الخيام حزنه وترسم المسرحية الالام والامال والوسائل : آلام مجتمع مريض متعفن تحول بشره الى « نسخ مكرورة من كتاب اصفر » مجتمع يموت الانسان فيه بالمجان ، والامال في مجتمع يبزغ فوقه نجم الثورة الحقيقية ، والوسائل ، تلك التي يعاقب الخيام على ارتكابها كما لو كانت جرائم وهي اختراعه للتقويم الشمسي (العلم التطبيقي) واكتشافه ان الارض ليست مركز الكون وان النجوم ثابتة (العلم النظري) وكتابته الرباعيات (الفن) ، وتلك الوسائل الاخرى التي يجرها النجم المنتظر وراءه ذنبا طويلا لامعا يحلم به الخيام ويبشر به عندما تسحقه الشروط وترغمه على تأجيل رؤاه ، والخيام يقول : « انا أمسكت بخيط مصيري هكذا وجذبته ، وها أنذا أسهر مع قمر الدموع لابكي ، بكاء المقاتل المهزوم الذي فجر انتصار الانسانية من خلال ليل هزيمته » . اما كتاب اقليدس

ـ رمز التقدم ـ الذي رآه من قبل ان تمتد اليه يد عجرية جربـــاء لتنزع بعض صفحاته « الصفحة العشرون تأكل النار اطرافها » فانه يقول عنه « كتاب اقليدس وغيره من الكتب سوف تعـــاد كتابتهـــا بحروف جديدة » .

يبقى لنا هذا الانتظار الفارغ « كفراغ أيام الجنود العائدين مـــن القتال » كما يقول الشاعر في قصيدة « الملجأ العشرون » في ديـــوان « اباريق مهشمة » وعندما نأمل ـ من خلال خيام « محاكمة قـــي نيسابور » او غيره من شخوص قصائد البياتي الاخرى ـ هذا الانتظار الذي يعيشه البشر ويحل الموت بهم زرافات ووحدانا ويمضون بظلالهم الهاربة « فالناس يمضون ولا يأتون » كما يقول في قصيدة « الى ارنست هيمنغواي » في ديوان « النار والكلمات » ، نجد أن آلام هـــؤلاء الذين يموتون ننجم عن انهم يموتون دون ان يفعلوا شيئا من شأنـــه ان يطرد ذره حقيرة من صخرة سيزيف « أكذا تموت بهذه الارض الخراب ؟ ـ ويجف فنديل الطفولة في التراب ؟ ـ أهكذا شمس النهار ـ نخبـو وليس بموقد الفقراء نار ؟ » (قصيدتان الى ولدي علي) في ديـوان « سفر الفقر والثورة » ، وعندما تتكشف هذه الالام وتصنع كابوسـا مفزعا تأكل الشكوك عقل الحيام ويعـــذبه الخوف من ان تكـون هذه المأساة كلها اوهاما باطلة ، وهو يقول : « وهذا الشاهد الماكر يطمس الى الابد حقيقة انا كنا على الارض » ، ولكن كما يضع مارتن هايد جريده على حقيقة الوجود من تجربته مع العدم في مقاله « ما الميتافيزيقيا ؟ » توفر هذه التأملات للخيام الرؤية التي تضع يده على الحقيقة المنتظرة (ذلك النجم) ويصرخ الشاعر في قصيدته « مرثية الى مهرج » فـي ديوان « سفر الفقر والثورة » : « أيبعث الانسان ؟ ـ في هذه المقبرة الضائعة المكان » . ويعود الخيام الى أشياء الطفولة الجميلة التي ماتت مثل رحيم وياسمين فينحسر عنهما ظل الموت الذي لا يعود غير صفـة ثانية لنهر الحياة ، فياسمين ـ التي قتلها الطـــاعون ـ لم تمت ، ورحيم ـ الذي قتل بضربة سيف ـ لم يمت ، وتبقى الصورة التـــي كانت على غلاف كتاب مصور وهي لسلطان على صهوة جواد يعمل سيفه في جسد أحد الكفار ـ والتي كان رحيم على استعداد لدفع أي ثمـن في مقابلها ـ تبقى هذه الصورة وثيقة احتجاج ، وصيحة امل ، وصرخة انبعاث ، واسطورة النضال هذه سوف تنصـدر القصيدة الكبـــيرة « الذي يأتي ولا يأتي » بعنوان « صورة على غلاف » .

وعنوان القصيدة نفسه يحمل بقوة جوهر الانتظار المؤلم الحزين ، فالفعل المضارع « يأتي » ـ بدون سين او سوف ـ يعطي انه بـــدأ يأتي أي الولادة الدينامية والخروج ، انه ليس طيرا من جنس اخـر يقبل من عالم اخر لكنه يأتي من هنا ، يخرج مما نحن فيه ، انه يولـد ولا نكاد نحس بميلاده ، انه (يمر مر السحاب) ، ولكن الفعل المضارع (لا يأتي) في حالة النفي يحاول ان يعيد ذلك الانطلاق الى القمقـم ويحبسه في ظلماته ، انه لم يقطع علينا الطريق باليأس (لن يأتي) ولكن هذا النفي الخالي من تحديد الزمن يوفر الشك العميق في «يأتي» وقد يوفر الكفر به الى حد كبير وسوف نرى كيف أن خصائص العنوان هذه هي خصائص القصيدة .

ومن جوهر « الذي يأتي ولا يأتي » يتولد الايقاع المطهري الـذي اشرت اليه في مقدمة المقال ، فالحاضر التعيس الذي نريد ان نتجاوزه الى مستقبل عظيم يشير الى الانتقال من الجحيم الى الفـــردوس ، وفي المطهر بينما نطرب قلوبنا التي تهفو الى الفردوس يعذبنا الـرعب ونخاف ان تستحيل الامال التي أقمناها أوهاما اخترعها جنوننا واختلقها اختلاقا فنسقط ثانية في الجحيم (جحيم نيسابور) ويموت ذلك الذي بدأ يأتي وتسقط اجنحته قبل ان يكتمل نموها . وسوف نرى كيف يخلق هذا الايقاع توترا خاصا عميقا يعيش في كل الصور التي تقدمها القصيدة وكيف اننا نظل خائفين طوال القصيدة خشية ان نكتشف فجأة ان هذا الذي يأتي قد استحال الى حمل كاذب تحلل به امرأة عاقر نفسهـــا ، ولكن تأكيدات الرباعيات وآمال الجزء المعنون « الصورة والظل » ، الـى كل الامال والتأكيدات الايجابية في كل مكان في القصيدة تشيد بقـوة وفخامة وجلال بالانسان الذي يناضل ضد الشروط التي تصنع ذلـه الاجتماعي الانساني وشيد به وهو يواجه ذله الكوني الكبير امام المـوت وتشيد به في روعة البداية التي يتكلم عنها برشت في مقدمة مسرحيته « حياة غاليليو » وان كان الموت يدرك الكثير قبل ان يأتي « الـــذي يأتي » فانه يخرج لسانه للموت حيث تفنى الذات في الجماعة وتنال شرف التضحية ونمد خط النور ـ المصنوع من الدم الساخن ـ عـلى اسمامته قليلا او كثيرا بقدر ما تكون الطاقة قادرة على العطاء .

يقول سارتر في « الادب الملتزم » ان الشعر يخلق « أسطورة » الانسان بينما يحط الناثر « صورته » ، بيد ان قصيدتنا هـذه تخلق « الاسطورة » وبنيتها على « الصورة » التي نخطها وتأخذها نقطـــة انطلاق لها ومن هنا تأخذ القصيدة صفتها كشهادة عصر .

وشهادة العصر لا تأتي من مراقب محايد كمراقب أينشتين بل من الانسان الذي يعاني عصره في شروطه الراهنة اللاانسانية التي تسبق أخطر تحول في تاريخ الانسان يبدأ بعده التاريخ الحقيقي للإنســـان وتعود معاناة الانسانية الاجتماعية الضخمة منذ نهاية المرحلة البربريـة خيط النور الذي صنعه الدم ، وهذه المعاناة هي شهادة الميلاد التـــي نحررها الانسانية لمولودها الانسان الجديد .

وبالقدر القليل الذي يسمح به شكل هذا المقال أود أن الاحظ ان سارق النار الذي التقينا به في « اباريق مهشمة » يصنع هذا الخيط الذي يبلغ ذروته في « الذي يأتي ولا يأتي » في الجزء السادس عشر : « خيط النور » الذي اشار اليه في « ١٢ قصيدة الى العراق » عام ١٩٥٧ في ديوان « كلمات لا تموت » عندما قال « يا جسرنا الدمـوي ، يا خيط الضياء » . وفي هذا الخيط الصاعد اخذ سارق النـــار ـ بروميثيوس الذي ولد من سيزيف ـ هذا الذي وقع في الشرك غيـر واع هذه الحقيقة ، اخذ سارق النار هذا يعمق رمزه ويتقمص رموزا مختلفة كالحلاج والمعري ولوركا والخيام ، وهكذا تعددت وعمقت أبعـاد سارق النار ، فهو شهيد يعطي دمه فنفرح ونحزن لان « الجرح لـن يبرأ ، والبذرة لن تموت » (عذاب الحلاج ١٩٦٤) . والحقيقـــة ان روحا فاوستية ايكارية تتقمص سارق النار هذا في كل تعيناته اذ انـه لا تحده حدود ولا يرى من خلال « ثقب الابرة » الذي تخلقـه الشروط الاجتماعية ، الخلاص من هذه الشروط فقط بل يرى في فرح انتصارا كونيا عظيما يبلغ به غاية عظيمة من العلو .

بعد هذه المقدمة أبدأ الكلام عن القصيدة نفسها ولا بد من ان افتعل تقسيم العمل الفني الى عناصر تيسيرا لمهمتي :

والموضوع ـ كما اتضح من المقدمة ـ هو انتظار تحول عظيـــم يعصف بأدران الجحيم الذي نعاني فيه وخروج نيسابور الجديـــدة (جنة الارض) من هذا الجحيم ، وبهذا لم يعد الجحيم استاتيكيـــا ثابتا يتحدث المرء عنه كوضع نهائي للانسان لان بذرة التحول فيـــه بدأت تمد جذورها في باطن الارض وبدأت ساق النبات تتقافز نحـو السماء كما لاحظت من قبل في تحليل عنوان القصيدة. وفي مقدمـة المطهر لدانتي ، في الابيات الاولى من النشيد الاول ، يشرع دانتي قلع سفينة عبقريته تاركا ذلك المحيط من اليأس في الجحيم خلفه ، طالبـا بلك المياه المقدسة التي سيخرج منها في الابيات الختامية للمطهر مولودا جديدا طاهرا ومعدا لان يصعد النجوم . وقول Dorothyl Sayers عـــن مطهر دانتـــي انه يكـون حالة امتحـــان a test case يصدق على تجربة « الذي يأتي ولا يأتي » اذ نترك البشر الفاشليـــن المهزومين المحروبين الى البشر الذين يتسلقون الاسوار و « يحطمـون بيضة النسر ، ويولدون ـ من زبد البحر ومـــن قرارة الامواج » . والقصيدة تعرض الانسان في نهار انتصاره وفي ليل هزيمته في ذلـه الاجتماعي والكوني في الهزيمة قبل « الذي يأتي » وفي ذله الكونـــي في انتصاره بعده .

وأعتقد ان هذا يكفي للانتقال الى شكل القصيدة ومحاولة استيعابه، وواضح ان مقالا يتناول شكل قصيدة طويلة كهذه جدير فقط بأن يذكر ملاحظات حول القصيدة في شكل بعيد كل البعد عن الدراسة :

يذكر القارىء ان الخيام المنفي عجز عن الفعل وركن الى التأمل في انتظار (كفراغ ايام الجنود العائدين من القتال) وقد نتج عن هذا ان القصيدة اخذت شكل التأمل في تاريخ الفعل ونتائجه وآلامه وليس شكل الفعل ، ومن هنا نتج شكل الحوار الذي يتكلم فيه الخيام بضمير المتكلم ثم يخاطب بضمير المخاطب ثم يتحدث عنه بضمير الغائب ويسكت الحوار ويأتي التأمل الذي لا نرى الفم الذي يحدث بكلماته وينكسر عنق الزمن الراسي .

وقد بدأت القصيدة بمقدمة عرضت علينا صورة الغلاف التي كان رحيم مولعا بها ومات قبل ان يسعد بتحقيقها وتتقمص الحياة صورة الغلاف (تلك الاسطورة التي ظلت متحجرة تنتظر عصا موسى) ونرى سارقي النار العزل الجياع يتسلقون الاسوار ويمزقون الكفار وتنهار القلاع تحت ضرباتهم والفجر في الدروب ، ونرى في الصورة المخاوف تعيش في قلب الامال تقطع اوتار النشيد الذي يحمل البشرى (ـ مولاي ! قال النجم لي ، وقالت الاقدار ـ باننا ممثلون فاشلون فوق هذا المسرح المنهار) ونحدق في الصورة فنرى الماضي والحاضر والمستقبل ونرى الطفولة تضحي بسعاداتها بل بخبزها ودونها من اجل عيون المدينة الفاضلة البعيدة ، ونيسابور يبصق الغزاة في وجهها المجدور ، والقمر يحلم في يأس ، بطن الحوت والارنب تنهشه الكلاب المتوحشة ، ولوركا يجر واقفا للموت ، ونرى سارق النار يشيب شعره وتطمس التجاعيد وجهه ، ونرى الذي « يأتي ولا يأتي ، اراه مقبلا نحوي ، ولا اراه ـ تشير لي يداه ـ من شاطىء الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياة » ، ونرى البذور التي تمرغ في الوحول تفتح عيونها في باطن الارض وتشق دربها للنور والهواء ، مقطوعة اليدين يعلو وجهها التراب في صورة عشتار على الجدار ، ونرى اورفيوس يبحث عن محبوبته عائشة في العالم السفلي فتفر من عينيه في تلك السراديب المظلمة ، ونرى سارق النار يباع في المزاد « من يشتري عبدا طروبا ؟ » ويعلفنا الرعب من ذيولنا امام الموت يعيث في الارض فسادا ويبرطع كيفما يشاء ، ونرى سيد الكون في ذلة يموت كالكلب بالمجان « يحوم حول سوره عريان » فقد حتى ذاته « فاكهة محرمة » ونرفع انفنا الى السماء عندما يومض امام اعيننا وهج خيط النور الذي ينبعث من دم الشهداء الذين لا يحصيهم عد ، ويدور الهلال الاخر ليقفل القوس عندما نادي من اسفل السلم « يا رباه » سائلين ان تتجمع اجزاء الصورة المزقة حتى ينحسر الظل عن الصورة وينهدم جدار الزور .

من الفقرة السابقة نستخلص هيكل القصيدة وهو ببساطة الصورة التي على الغلاف نراها مجتمعة في اللحظة الاولى ثم يصيب السحر أعيننا فنوغل في اجزائها الدقيقة ومنعرجاتها المتشابكة ونسمع ايقاعاتها الحزينة تارة الغاضبة اخرى ، الصاعدة تارة الهابطة اخرى ، الشامخة تارة الخائفة اخرى ، المتوترة بطبيعة التجربة دائما والتي تقذف ارواحنا المزقة الى تأملات الرباعيات التي نخرج منها وقد حفرت الصورة بعمق في ارواحنا لتسلمنا الى دروب نسلكها وقد تسللت العظام خارجة من هياكلنا وتخذلنا ركبنا الى ان تنبت العظام ثانية على حين فجأة اذ نسمع قلوبنا تصلي بخشوع الى خيط النور وتتمنى لو قدر لها ان تمده على استقامته بقدر مشرف .

والصورة تعرض نفسها من خلال شخصيات « تحمل رموزا » لا تلبث ان تذوب في رموز جماعية ، فشخصيات الخيام وعائشة ولوركا وسقراط ، وشخصيات الاساطير الفرعونية والبابلية (عشتار وتموز واوزريس) والاغريقية (اورفيوس) والهندية (بوذا) والشخصيات الحيوانية (الكلب الجائع والارنب المذعور) وشخصيات الرموز الجماعية الجزئية (المغني) وكل تعينات سارق النار وسيزيف الواقع في الشرك لا تلبث ان تذوب في الرمز الجماعي الكبير « خيط النور » وتقابلها الشخصيات المعارضة (الثيران والثعلب وشهريار والثعبان وكلاب الطردية) التي لا تلبث ان تستحيل لبنات في جدار الرمز الكبير المعارض « الموت » ، وهنا يتقابل رأسا الرمزين ويتناطحان .

ومن أهم صفات الشكل في هذه القصيدة هذه الحرية الضخمة التي نمارسها في تراكيب صدرها الجزئية ، وقد رأينا في دواوين اخرى للبياتي هذه الحرية التي تضع كلمة بجانب الاخرى فتنتج عن اجتماعهما انفجارات خصبة ، ولنتأمل « وجنة الحرف » لا أذكر اين ! و « أعناق الكلمات » في قصيدة (الى ثوار اليمن) « يا عالما عاث به التجار والساسة ، يا قصائد الطفولة اليتيمة » (موت المتنبي) ، « فالجرائد ـ كتبت : ان السماء ـ امطرت في ليلة الامس ضفادع » (شيء عن السعادة) ، « ويا مناديل الغياب » ، « مناديل رحيل » (قصيدتان الى صلاح جاهين) ـ وغيرها ، بيد ان دراسة مثل هذه الصور ليست من اغراض هذا المقال .

ومن الرموز السخية الفنية في القصيدة الثعلب العجوز الذي يرمز للموت ، فقد اخذ صورة مركبة تفجر الرهبة والسخرية في آن واحد ، والرمز موفق بصورة تدعو الى العجب ، والثعلب الذي تقترن به صفات المكر والخداع في ثقافات كل الشعوب تقريبا موفق حقا كرمز للموت ، ليس فقط في موقفه العدائي من الانسان وانما ايضا في اشتراكه مع الموت ـ هذا السوس الذي ينخر كل شيء ويختفي تحت كل حياة ـ في خداعه ومكره وغدره . وفي جزء الموت من القصيدة يعمد الشاعر الى كل عنصر من عناصر الحياة يقلبه ليجد الموت قد اتخذه كهفا ، انه مثل الاله البحري اليوناني القديم بروتيوس Proteus يتقمص الماء والهواء والتربة والنار ويأخذ كالحرباء الوانا مختلفة وكالسحاب اشكالا مختلفة ، وهذا هو « الثعلب العجوز ـ الملتحي بالورق الاصفر والرموز ـ المرتدي عباءة الليل ، وفوق رأسه طاقية الاخفاء » ، يفترس العذارى والنعاج والاطفال ، يغدر بالعشاق ويلعب النرد مع الشيطان « يأخذ شكل هرة سوداء » « يطارد الفراخ والاشباح ـ يمارس السحر بلا شعوذة » « يقرأ في كل اللفات كتب الفلسفة الجوفاء ـ يرمي بها للنار ـ يزيف النقود والافكار ـ يندس في قلب المغني ، يقطع الاوتار ـ يقتل من يشاء » « يغدر بالجلاد والضحية » « اخرج لي لسانه وسار ـ ينفخ في المزمار ـ تتبعه عجائز القرية والاطفال » .

من كل هذا ننتقل الى الزمن في القصيدة ، وليس كلامي هنا عن الزمن الروائي فيها ولكن عن هذا الوعي الحاد الذي في القصيدة في تحديد ما هو زمني في مكانه من الابدي ، وقد رأينا هذا الوعي الحاد من قبل في قصيدة (موعد في المعرة) ديوان « اشعار في المنفى » اذ يقول الشاعر : « صاح هذي ارضنا من الف الف تتنهد ـ وعليها النار والعشب عليها يتجدد » . وهذا الوعي يبلغ أقصى حدته في « ١٩ رسالة الى ناظم حكمت من ستالينو » في ديوان « كلمات لا تموت » في قوله : « وكنت افكر بملايين الخيانات التي ارتكبها الرجال والنساء منذ أن ولد كوكبنا الارضي » ، ولا شك أن مثل هذا

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

١ ـ الادب الملتزم	٥٠٠	ق.ل
٢ ـ ادباء معاصرون	٤٠٠	ق.ل
٣ ـ جمهورية الصمت	٤٠٠	ق.ل
٤ ـ قضايا الماركسية	٤٠٠	ق.ل
٥ ـ المادية والثورة	٤٠٠	ق.ل
٦ ـ جمهورية الصمت	٣٥٠	ق.ل

منشورات دار الاداب

الوعي الغريب بالزمن نتاج معاناة عميقة تلد قلقا غريبا يجعل الشاعر يحاول الامساك باللحظة وتحديد مكانها في تيار الزمن الدافق في لابداية ولانهاية ، وقد انتج هذا الوعي الحاد في قصيدة « الذي يأتي ولا يأتي » قلقا اكسب كل شيء توترا خاصا هو روح العمل كله ، ويدرك القارىء كيف انه كان يحاول الامساك بالظلال الهاربة التي تفلت من يده في حزن صامت ترثيها بنات الماء . وعبارة مثل « أبيع موتها » وأخرى مثل « وزورق الابد ـ مضى غدا ، وعاد بعد غد » ولا سيما الاولى تجسدان هذا الوعي بوضوح ، ولا شك ان هذا النوع من الوعي بالزمن يعطي شكل الأمل الذي وردت به القصيدة انطلاقا ضخما وتوترا عجيبا يهتز فوقه الانتظار بعنف . ومن أروع تلك الصور التي تمثل هذا الوعي ايضا ظلال عائشة التي تنسحب الى الخلف البعيد بقسوة وتلك العبارة التي تكررت اكثر من مرة وهي « ارم العماد ـ تغرق في ذاكرة الاحفاد » .

ان لنا ان نتحدث عن المضمون الذي توفره القصيدة : إن القصيدة الجيدة تشيد بالانسان في ذاته الاجتماعي والكوني وترد له كرامته وتزيل عن وجهه دمغة الذل والمهانة ، وهذا ما تفعله قصيدة « الذي يأتي ولا يأتي » فقد عرضت علينا الانسان الاعزل الجائع الذي يدفع كل الالام والسجون والاضطهاد ليحصل على شهادة ميلاده كانسان كريم في هذا الكون ، وفي جزء الموريت نرى الانسان وريث هذا العالم « يحوم حول سوره عريان ـ فاكهة محرمة » منسحقا مهانا ، ذاته محرمة عليه من « مدن بلا ربيع مظلمة ـ مفتوحة ، مستسلمة ـ تحيا على القتات » لاهثا على قارعة الطريق « يبحث عن وظيفة شاغرة في صحف الصباح » تدير الارقام رأسه الذي فرغ حتى من الاحلام « يفرغ في حدائق المساء ـ حياته الجوفاء » ولماذا لا يسميه باسمه ؟ انه كلب « يبحث عن مكان ـ يموت فيه صاغرا ، كالكلب ، بالمجان » .

ولكن خيط النور ينتصب في مقابل صورة الانسان الملك ، شامخ العنق ، ويرينا ما تحمله الايام للبشر من انتصار عظيم عندما « يحطمون بيضة النسر ويولدون » ، من كل هذه الاوجاع التي يكابدها الانسان . وخيط النور يبشر « بالذي يأتي » . ولا أعتقد أن هناك ما يبرر ان نجعل « الذي يأتي » شيئا غامضا كما قد يفهم من كلام الدكتور احسان عباس عنه في عدد الشعر الممتاز (مارس ١٩٦٦) من مجلة الاداب ، فهو كما قلنا ذلك النجم المنتظر الذي تكلم عنه الخيام بوضوح شديد في « محاكمة نيسابور » .

وبمجيء « الذي يأتي » يخيل الى المرء أن خيط النور سوف يستحيل الى بطولات في ذاكرة الانسان ، فقد انتهت كل آلامه ، الا ان التحدي العظيم عندما يعود الانسان الى صراعه الاصيل مع الطبيعة ، مع الموت الذي يخرج لسانه للانسان في هزيمته وانتصاره ويحكم عليه بالانتهاء في اعظم ساعات فرحه ، وهكذا تضعنا القصيدة وجها لوجه امام الذل الكوني .

ما موقف الانسان من هذه المهانة الكونية ؟ أن هذا السؤال هو الذي يوجه حقا الى القصيدة . فالرد على المهانة الكونية لا يكون الا بتأكيد الحياة في اطلاقها ، الامر الذي يقضي على سؤال يقول . « ولماذا لا ينسحب الانسان من الكون طالما ان الذل يلاحقه في كل الاحوال ؟! » .

والقصيدة وان لم تقم بهذا التأكيد على نحو مباشر الا انها توفر في النهاية حرية كبيرة نصل اليها فتقذف بنا مرغمين الى تأملات من شأنها ان تزيد من حدة ايكاريتنا التي تتخطى حتى شرط الموت من ناحية وتؤكد ان معاناتنا تبدأ من وجودنا الذي هو اكبر واشمل منها

واعتقد ان تبرير الحياة في مقابل الموت تبريرا واضحا هو الذي يعطي لخيط النور قيمته ، فشهداء الانسانية انما يحاولون ـ كما يقول تارو في رواية الطاعون لالبير كامو ـ ان يحققوا القداسة في كون لا اله فيه وليس هناك ما يدفع الى بلوغ تلك القداسة غير الاقتناع التام بالحياة .

القاهرة **خليل سليمان كلفت**

الرحيل

رؤيا الافاق تغيم بعينَّي ولا أجد
دربا عبر الوطن
دربي .. والاشواك تحف به
وبه تنهدَّ حدود الزمن
وبطاقات السفر البلهاء
تقتات العمر ، وتقذفني
عبر بحور ، وصحارى ، وقرى عجفاء
عبر قتاد الارق
وسهادي في تيه الافق
لا طيف ، لا نجم ، لا وهج صباح
يا ليل الغاب الافريقي
لا الدرب الاخضر ، لا زهو الاعشاب
لا الرعد ولا قرع طبولك حول النيران
لا اللحن اللاهث كالبركان
في ليل « البنجر » .. في تيه طريقي
يزرع في دربي نجمة ليل
وينير البلور الازرق
فاعلي اقرأ .. طيف رسالة
بعض سطور ... رسالة
همس حنين ، .. ورسيس نداء
يا ليل التيه ، ويا ليلة منفاي
لم يبق لدي سوى عود ثقاب
وبقايا حلم ... وسراب
تقتات العمر وتقذفني
عبر حدود الزمن
عبر بحور ، وصحاري ، وليالي سوداء
وغد لا أدريه
وسؤالي الحيران
عبر دروب التيه
لا ادريه ... فلقد آن رحيلي
يا الف سؤال ... وسؤال

برلين الشرقية **كاظم السماوي**